المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

تصدرها وزارة الثقافة - دار الشؤون الثقافية العامة

المجلد الخامس والثلاثون - العدد الرابع - لسنة ٢٠٠٨

WWW.ATTAWEEL.COM

نكبة الحضر في التقليد الأعمى

حسن عبيد عيسى
عضو الاتحاد العام للمؤرخين العرب

أسوة بالملوك العظام ممن يتخذ لمنصبه اسما اذا وقع مهيب فقد اختار احد ملوك العرب الكبار في الأزمان الغابرة لقب (الساطرون) للدلالة على عرشه ذلكم هو الملك الأشهر للحضر، المدينة التي ازدهرت في القرنين الثاني والثالث الميلاديين بين (الموصل) و(الفرات)، يعرفه المؤرخون ذلك الملك باسم (الضيزن) والذي يقال انه كان ملك الجزيرة كلها ولم تكن(الحضر) غير حاضرته، وربما كان الرجل محقا في تفخيم لقبه فهو قائد محنك لجيش قوي، ولقد امتلكنا وثيقة عن الاهتمامات العسكرية الفائقة لقائد تلك الدولة وسلطانها عندما عثرت البعثة التنقيبية العراقية برآسة المرحوم(فؤاد سفر) على صورة (ميترا) معبود الجيش في تلك المملكة ما يدل على أن الجيش في تلك الدولة يعد مؤسسة ذات أهمية بالغة لها سياقاتها والهها الخاص ولا شك أن لها تنظيمها الراقي.

إضافة إلى ظهور أطلال مدينة فخمة بناياتها تبهر الناظرين لما هي عليه من روعة وفخامة تدل على مستوى حضاري راق وما يرافق ذلك من عوامل قوة جبارة. وهذا الملك هو الذي تسميه بعض الأدبيات التاريخية باسم (السنطروق) أو (السناطروق) الذي يلمح المطران(يوسف الصائغ) إلى احتمال كونه (الضيزن) الذي يسميه (الضغيزن)[3] هو الذي يعنيه (جواد علي) بالسنتروس كما يسمى بالاغريقية والذي يرد كلمتي (الساطرون) و(سنطروق) إلى أصل واحد فهو (سنطروق) بكتابات أهل (الحضر) وهو (ساطرون) عند الاخباريين العرب بعد التحريف[2].

لقد استطاع ذلك الجيش الصمود بوجه أعظم إمبراطوريتين في ذلك الزمان هما الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية فالإمبراطورية الرومانية لم تستطع مصادرة استقلال (الحضر) التي تحدت ببسالة نادرة جيوش الرومان الجرارة ومن تحالف معها من القبائل العربية[1] وتمكن جيشها المنظم من مداهمة عاصمة الفرس في غارة جسور واستطاع أسر اخت كسرى العجم(سابور الجنود ابن اردشير) ولم يستطع عظيم الفرس المستباحة كرامته والنتهك شرفه من استعادة اخته والانتقام لشرفه من ذلك الملك المتحصن في واحدة من الحواضر المتصفة بالمنعة والقوة، إلا بعد أن لمحته(النضيرة بنت الضيزن) فقررت أن تراسله وفي لحظة ضعف عاطفي حمقاء، سرقت مفاتيح الحصن الذي يتحصن فيه أبوها وأسرتها وقيادة الدولة جمعاء، لترسلها الى عدو شعبها اللدود الذي اقتحم الحصن ليغرق البلاط وعموم العاصمة بدماء عشرات الألوف من الرجال الأقوياء ثم لم يكن مصير تلك الخائنة بأفضل من مصير قومها، بعد أن عرّس بها(سابور) ليلة واحدة فما قصة الدماء المتتابعة في مصيبة(الضيزن) الذي قلد ذوي البدع قال مصيره إلى ثواء تحت حطام قصره المنيف.

من هو الضيزن:

ينقل(ياقوت الحموي) عن(الشرقي بن القطامي) أنه (الضيزن بن جلهمة) أحد(الأحلاف) سار بفرقة من (قضاعة) بعدما افترقت(قضاعة) ميمما شطر (الجزيرة) ثم ينقل عن غيره انه(الضيزن بن معاوية بن الإحرام بن عمر بن النخع بن سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف ابن قضاعة)[1] بينما اكتفى (ابن هشام) بذكر لقبه فذكره باسم(الساطرون) وهو اللقب الذي تداوله الاخباريون كما مر بنا ناسبا(النعمان بن المنذر) إليه على انه من ولده مستندا في ذلك على ما أخبره به(خلاد بن قرة بن خالد السدوسي) عن(جناد) أو عن بعض علماء أهل (الكوفة) بالنسب[1] وبذا تحاشى منزلق البحث في اسم يتنازع الرواة حقيقة نسبه.

ومن تاريخ الشفاهيات الذي دونه مؤرخو عصور متاخرة عن الحدث، نتعرف على أن للساطرون سلطة قوية وسطوة مخيفة على كل من جاوره، بل حتى على إحدى أعظم إمبراطوريتين عرفهما ذلك الزمان تلك هي الإمبراطورية الفارسية التي غزاها مرات ساق في إحداها سيدة من سيداتها

هي (ماه) شقيقة (سابور) و جلبها سبية إلى عاصمته المنيعة وكان على الفرس (سابور الجنود) وهو (سابور بن اردشير بن بابك) أو (سابور الأول) الذي خلفه (ابن هشام) سابور ذا الاكتاف [illegible] ولا يتطابق مع الحقيقة فان (ذا الاكتاف) من احفاد (سابور الجنود) [illegible] (سابور ذو الاكتاف بن هرمز بن نرسي بن بهرام بن بهرام بن بهرام بن هرمز ابن سابور الجنود)[9] وقد ذكر (الجدي بن الهاث ابن عشم بن حلوان القضاعي) ذلك عندما ارخ للمعركة الحاسمة بين الحترفين بقصيدة رثاء جاء فيها:

تاهم بالفيول وجحفلات
وبالابطال سابور الجنود

وكان (الجدي) هذا ترك لنا وصفا (ربما هو منسوب اليه) يصف فيه واحدة من المعارك الشرسة التي وقعت بين (الضيزن) وجنود الفرس على ارض (شهرزور) حيث يقول:

داضا للاعادي من بعيد
بجيش ذي التهاب كالسعير
فلاقت فارس منا نكسا لا
وقسنا هرابذ شهرزور
فتيناهم بخيل مسالف[10]
وبسالدهم الصلادمة الذكور

وكمادة (حمزة بن الحسن الاصفهاني) الذي يكتب بنهج تحضيري تدليسي مدروس فانه حاول طمس السبل التي تفضي الى الحقيقة، عندما تناول تواريخ (عرب الجزيرة) و(الشام) حتى انك لا تكاد تظفر عنده بشيء ذي قيمة بعد ان تكون قد توغلت في حقل الغام ذي كثافة، لا يهمك وانت فيه غير ان تفكر بالسلامة. فعلى الرغم من أنه يبدأ بسليح بن حلوان، إلا انه لا يتناول غير الخصومات البينية وتعمد الابهام في النسب ليضاجعك أن (جفنة) لا ملك. ولم يذكر سياقا سليما لملكه، قتل ملوك (قضاعة) من (سليح) الذين كانوا يدعون (الضجاعمة)[11] متجنبا التعرض لذكر (الضيزن) ومعاركه مع (الفرس) وزوال ملكه على يد (سابور الجنود).

وكما هو حال الشوامخ فقد احيط (الضيزن) بالعديد من الخرافات والاساطير، لابأس من ذكر بعضها هنا مما وجدناه عند (ياقوت) إتماما للفائدة المتوخاة ومنها انه غزا (بني إسرائيل) في أربعمائة الف فدعا عليه (ارميا) النبي فهلك هو وجميع أصحابه إذ نجد الدس اليهودي والتخليط المتعمد فتمة خلط بين شخصيتي (نبوخذنصر) الذي هاجم عاصمة (اليهود) في زمن نبيهم (ارميا) فالخلط واضح وبين هدفه التشويش إضافة الى القصد اليهودي الدائم وهو رد كل اثر تاريخي مهم الى (اليهود)، ومن ذلك تفسيرهم تدمير (الحضر) الزاهرة إلى انه راجع الى (اعتداء) جيشها على (اليهود) المساكين الذين لا يملكون إلا الدعاء مع ان دولة (اليهود) كانت قد زالت قبل ذلك التاريخ على يد (نبوخذنصر) بسبعة قرون.

والخرافة الأخرى تقول: انه كان في جبل (طور عابدين) معصرة وفيها ساقية من الرصاص تجري تحت الأرض، فتتبع أحدهم تلك الساقية فوجد أن مصبها كان في بيت من صفر بالحضر فيقال إن ملكها كانت تعصر له الخمر في طور وتصب في هذه الساقية فتخرج الى (الحضر) وقيل إن تلك المعصرة كانت بسنجار وتخرج إلى (الحضر)[12].

منعة الحضر:

لابد للملك مثل الذي رأينا بعضا من سيرته مدينة منيعة يرتكز اليها في هجماته وغزواته وعند قفوله منها، فهو هدف لرغبات منتقمين كثر خصوصا انه تعرض للفرس في أكثر من واقعة وكان النصر حليفه، ما يجعله غير مطمئن لغدر الزمان وخطط الأعداء، فقد حصن (الحضر) التي انشئت بالأساس في مكان منتقى بعناية، فهو يتصف بالحماية الطبيعية مع مورد ماني عظيم هو نهر (الثرثار) الذي يزيدها تحصينا ويمدها بما يروي سكانها حتى لو حوصرت سنين طوالا وقد وصفه أهل ذلك الزمان بأنه كان نهرا عظيما وكانت السفن تمخر عبابه متجهة نحو (الحضر) ومغادرة لها حتى صارت المدينة ميناءا عامرا واختير لبنائها نمط من الحجر الصلب. وكان سورها الحصين يضم ستين برجا كبيرا وتسعة أبراج صغار، وزيادة في تمتين الدفاع النقطي فقد تم تزويد كل برج بمستلزمات الكفاية للصمود الطويل من بيت للمؤونة وحمام وغير ذلك.

وزيادة على ذلك فقد طلسمت المدينة ضد أي هجوم مهما كان قويا أسوة بمدن ذلك الزمان ففي (حمص) وجد طلسم عليه صورة رجل نصفه الأسفل عقرب ينفع في علاج لدغة العقرب. وكانت فكرة الطلسم الحامي لمدينة (الحضر) مبنية على أساس إزاحة النجاسة من المدينة، فنجاسة الحيض لو خلطت بدم حمامة ورقاء فإن حصن المدينة يتهاوى، وقيل بل لو كتب بدم الحيض على رجل الحمامة لتداعى الحصن وانفتح أمام المهاجمين. وحتم ذلك إخراج كل امرأة زرقاء (ذات عينين زرقاوين) في وقت حيضها في مكان يلي الحصن الرئيس للمدينة خوفا مما ذكر[13] وربما تعدى ذلك لإخراج كل الطوامث من النساء خوفا من العواقب السيئة. ومع أن (ابن الاثير) يذكر ذلك

الطلسم وان انتقلب على قوته يتم بأخذ (حمامة ورقاء مطوقة يكتف على رجلها بحيض جارية بكر زرقاء)، وهو ما يقول الاخباريون أن (سابور) فعله لانتهار الحصن، إلا انه ذكر ان النساء الطوامث يخرجن الى ربض المدينة[11] ولم يستثن او يخص فئة معينة منهن، وربما كان ذلك يجري فعلا من باب الاحتياط.

و(الحضر) موقع أثري زاخر بالوثائق الحية التي تعين المؤرخ على اكتشاف الحقيقة، لم يكن قد أثار شهية (لايارد) المنقب الأثاري الشهير مكتشف الكنوز الأشورية فقد زار (الحضر) ووقف على أطلالها (وقفة سائح)[12]. وبتقديرنا فإنه زهد في كنوزها كونها لم تذكر في أسفار العهد القديم، ما جعلها خارج دائرة اهتماماته الاساس وهو السبب الذي لم يجعل أسلافه من المنقبين والأثاريين الانكليز يهتمون بالموقع المذكور ومنهم (روس) و(اينسوورث).

حصار سابور:

رأى (سابور) أن يضع حدا لتحرش (الساطرون) بدولته الذي تكلل بهجوسه على العاصمة الفارسية وسبي أخت ملك (الفرس). فعبأ قواته هادفا إلى اجتياح (الحضر) فحاصرها سنتين[13]، وقيل أربع سنوات[14] وهو أمر أكد الباحثون المعاصرون حدوثه وفي المقدمة منهم (جواد علي) الذي قرر أن ذلك الحصار كان سنة ٢٢٢ للميلاد وهو لا يتفق مع الواقع ولا نقره. والسبب ان الملك (سابور الجنود) الذي يسميه المرحوم (جواد علي) باسم (سابور الأول) والذي ينسب إليه الحصار المذكور كان في الحقبة (٢٤١-٢٧٢)[15] مما يجعل تقرير الراحل (علي) غير دقيق بينما نسمح آخرون إلى ان نتائج الحصار كانت ذات بعد ديني اجتماعي فبعد تدمير الحضر انتقلت العبادات الدينية العراقية القديمة إلى مدينتي (حران) و(انطاكية) اللتين ظلتا مركزين دينيين واضحين المعالم إلى الحكم العباسي[16] فصادف أن حاضت (نضيرة بنت الضيزن)، فأخرجت مع نساء أخريات حلوامث إلى الموضع المعد لمثل حالاتهن. فرأت (نضيرة) ملك العجم الذي كان قد هم بالرحيل يائسا، فنظرت إليه ونظر إليها فعشق كل منهما صاحبه[17] وكان كلاهما من أجمل الناس فأرسلت إليه تعلمه بحبها له وقالت له، إن دللتك على حيلة تفتح بها المدينة ما يكون لي عليك؟ قال لها أرفعك على جميع نسائي، واتخذك لي زوجة، فأخبرته بالطلسم وطريقة فكه. فعمل بما علمته فتهدم سور المدينة ودخلها فقتل (الضيزن) واصحابه وافنى قبائل كثيرة وكان مجموع ما قتل من (قضاعة) نحو مائة الف ومن ذلك الوقت خربت (الحضر) ودكت على أساساتها[18] فقال (الجدي بن الدياث) الذي دأب على التغني بـ الانتصارات القضاعية يرثي (الحضر) وبني عمومته:

الم يحزنك والأنباء تنمي
بما لاقت سراة بني العبيد
ومقتل ضيزن وبني أبيه
وإخلاء القبائل من تزيد
أتاهم بالفيول مجللات
وبالأبطال سابور الجنود
فهدم من بروج الحضر صخرا
كأن ثقاله زبر الحديد

وقال (عدي بن زيد) واصفا ما حدث:

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ
ـلة تجبى إليه والخابور
شاده مرمرا وجلله كلـ
ـسا فللطير في ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فباد الـ
ـملك عنه فبابه مهجور

وينقل (ابن هشام) رواية اقتحام المدينة على وجه غير الذي ذكرنا، فهو يقول من غير إشارة إلى الطلسم أو قضية الطمث تاركا الأسباب التي من أجلها غزا (سابور) مدينة (الحضر): فأشرفت بنت (ساطرون) يوما فنظرت الى (سابور) وعليه ثياب ديباج. وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ وكان جميلا، فدست إليه انتزوجني إن فتحت لك باب (الحضر)؟ فقال نعم فلما أمسى (ساطرون) شرب حتى سكر، وكان لا يبيت إلا سكران، فأخذت مفاتيح باب الحضر من تحت رأسه، فبعثت بها مع مولى لها، ففتح الباب فدخل (سابور) الحصن، وقتل (ساطرون) وجنده واستباح (الحضر) وخربه[19] وفي رواية أخرى لا يحضرني أين قرأتها، أنها أرشدته إلى أن ينثر التبن على صفحة (الشرشار) من موضعه الذي يقف عليه ويتتبع حركة التبن فانه سيدخل الحصن من نفق لا سبيل إلى دخول المدينة من سواه.

المرأة في الحضر:

ليس في العبادات التي مورست في (العراق) القديم منذ أيام (السومريين) ما يشير إلى عد المرأة الحائض نجسا يجب إبعاده عن البيت أو عن المدينة كما ان توخي الحيض في مسائل الطلسمات وما يترتب عليه إبعاد النساء الطوامث

خارج المدن أمر غير معروف هنا. فالعراقيون كانوا ذوي ديانة تسود فيها المرأة لذا فهم مؤسسو الديانة الأنثوية، أو العبادة الامومية، قبل أن تتحول العبادة إلى الرموز الذكورية، وعلى هذا الأساس عبدوا (إينانا) التي صارت فيما بعد (عشتار)، وكانت لها مكانة خاصة ومتفردة بين الهتهم على مدى جميع الحضارات التي انبثقت هنا ولعدة آلاف من السنين.

ولقد كان من مستلزمات ومكملات المعابد في (العراق) القديم وجود بغايا المعابد ممن كان الملوك يمارسون معهن الفحش المقدس، وكانت تلك الكاهنات الفاحشات يحبلن على الرغم من الاحتياطات التي يتخذنها لتجنب الحمل، ومن تلك الوسائل أن الكاهنة العليا كانت تمارس الجماع في الدبر ربما كانت تتخذها وسيلة لمنع الحمل كما يقول (ساكز)[٢٠] مع وجود طرق فنية (تحافظ على الرحم نظيفا) وان بعض الرجال كانوا يأتون نساءهم بتلك الطريقة (عن طريق الدبر) ربما لتجنب الخوض في دماء العادة الشهرية، فثمة نصوص يشير إليها (ساكز) ورد فيها (يظل الرجل يقول لزوجته، أعطيني ظهرك)[٢١] ففي كل تلك الصور المفعمة بالممارسات الجنسية لا نجد أن للحلمث تأثيراً في الحياة الزوجية أو في الحياة العامة للمجتمعات في (العراق).

وكانت تلك الأمور ذاتها مجسدة في معابد (الحضر)، ففي الثالوث العبادي الذي هو جزء من الفكر الديني الحضري نجد أن إله الشمس هو السيد الأكبر عندهم الذي وجد مسكوكا على عملتهم وتحت رسمه عبارة (حطرا دي شمش) أي إن (مدينة الحضر كرست لعبادته) فهو الإله الأعظم عندهم وهو سيد الأرض وخالق الكائنات وآله العدل ويسمونه (سيدنا)، اما شركاؤه في الثالوث فهما (مرتين) التي يسمونها (سيدتنا) وابنهما (برمرين) الذي يطلقون عليه (ابن سيدينا). ولعل (مرتين) هي نسخة أولية للات العربية، وإنها عند اهل (الحضر)، تعد آلهة الحفاظ على الوثائق والمعاهدات وثمة تمثال يبين الملك واقفا أمامها بخشوع[٢٢] وزيادة على ذلك فإن تمثالا لإلهة أنثى ممن كان الحضريون يعبدونها وجد امرأة ترتدي لأمة الحرب وعلى رأسها خوذة وتحمل ترسا ورمحا وترتدي درعا مزردا يغطي صدرها[٢٣] وثمة مناصب دينية في المعابد الحضرية للنساء الكاهنات، فالكاهنة عندهم (كمرتا) إضافة الى وظائف لكلا الجنسين من العاملين في الخدمة الدينية داخل المعابد كالمزمرين والمزمرات والنائحين والنائحات وينصب عليهم شيخ هو (شيخ جميع المزمرات والنائحات التابعات لمعبد مرن) كما ورد لقب (رب قينتا) الذي يدل على انه كبير النائحين والنائحات[٢٤]. ان تلك الصور مجتمعة تظهر أن الحضريين لم يكونوا ممن يتجنب النساء الطوامث، مع وجود نفر من (العرب) كان يدين بالحنيفية وكانت تلك الديانة، أو بالأصح التعاليم الإبراهيمية، تلزم متبعها ببعض الأمور ذات المردود الايجابي كغسل الجنابة وتجنب وطء الحائض وغير ذلك من أمور، وكان الاسلام قد أقر بعض تلك الالتزامات لما فيها من منافع صحية واجتماعية، إلا انه كما كانت الشرائع السابقة متسامحة مع الحائض لا ترفضها ولا تأمر بابعادها عن محيطها كان أمر الدين الحنيف للمسلمين، بل كان الرسول (صلعم) يضطجع مع نسائه، وهن طوامث، فإذا أصابه شيء من دم طمث إحداهن غسل مكانه ولم يتعده ثم يصلي، وكان يشرب من نفس الاناء الذي شربت منه (عائشة رضي الله عنها) وهي حائض فقد شرب من فضل سؤرتها[٢٥].

أما في كتب التراث العربي، فإن تجنب الحائض في غير موضوع الجماع لم يذكر سواء من قبل زوجها أو من تساكنهم، ولكن (الدميري) ذكر زيادة على ذلك أن الأسد الجائع لا يدنو من المرأة الحائض ولو بلغ الجهد[٢٦] (بسبب الجوع) وهو (أي الدميري) لم يبن على ذلك أو يستطرد كدابه في هذا الشأن لعدم تيسر أخبار أو معلومات كافية عن أمر الحيض والحائض في جعبته غير ما ذكرنا على ما نظن.

بدعة إبعاد الحائض:

ترى من أين جاء (الضيزن) أو من سبقه في حكم (الحضر) ببدعة إبعاد الطوامث عن حصن المدينة إلى ربضها طوال مرحلة نزول الدماء عليهم حتى تم عليه ماتم ودفع حياته وحياة شعبه لقاء تلك البدعة السخيفة ؟

ليس لدينا من وثيقة غير التوارة التي كتبت في (بابل) عن مصادر شفاهية وصارت الكتاب المقدس لليهود، ففيه نجد (وإذا كانت إمرأة لها سيل وكان سيلها دما في لحمها فسبعة أيام تكون في طمثها وكل من مسها يكون نجسا إلى المساء* وكل ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجسا وكل ما تجلس عليه يكون نجسا* وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء* وكل من مس متاعا تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم

بماء ويكون نجسا إلى المساء* وان اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجسا سبعة أيام. وكل فراش يضطجع عليه يكون نجسا* وإذا كانت امراة يسيل دمها أياما كثيرة في غير وقت طمثها إنها نجسة* كل فراش تضطجع عليه أيام سيلها يكون لها كفراش طمثها. وكل الأمتعة التي تجلس عليها تكون نجسة كنجاسة طمثها* وكل من مسها يكون نجسا فيغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا الى المساء* وإذا طهرت من سيلها تحسب لنفسها سبعة أيام ثم تطهر* وفي اليوم الثامن تأخذ لنفسها يمامتين أو فرخي حمام وتأتي بهما إلى الكاهن* فيعمل الكاهن الواحدة ذبيحة خطية والأخرى محرقة ويكفر عنها الكاهن أمام الرب من سيل نجاستها) فتعزلان بني إسرائيل عن نجاستهم لئلا يموتوا في نجاستهم بتنجيسهم مسكني الذي في وسطهم)[٢٥].

فنحن هنا إزاء نص صريح يحكم بنجاسة الحائض وتجنبها بقسوة شديدة، لئلا يتنجس مسكن الرب فيموت(بنو إسرائيل) عقابا لهم على ذلك الفعل الذميم، ويتعدى الأمر النساء الطوامث حتى يشمل المستحاضة التي يجيز لها(الإسلام) اداء الصلاة شريطة أن تغتسل لكل فرض، ما يجيز لها الجمع بين كل فرضين عدا الصبح والأكثر غرابة اننا عرفنا الأصل في خرافة الربط بين الحيض والحمامة التي وجدناها في حكاية طلسم(الحضر)، إنها الطقوس اليهودية التي قلدها(الضيزن) تقليداً أعمى من غير أن يحكم عقله فيها أو يحاول التوصل الى الحكمة التي من ورائها فكانت بذلك التقليد نهايته المأساوية ونهاية حقبة مشرقة من تاريخ هذا الوطن الخلاق المبدع.

لقد تخلى(الضيزن) عن كل ذلك الكم الهائل من الإرث الحضاري الرافديني الذي يحمل سفطه وعاد بدائيا لا يختلف عن أولئك البدائيين الذين وصفهم(بوس) بقوله(عندما يحادث الإنسان البدائي شخصا آخر فليس من عادته أن يناقش أفكارا مجردة. فالحديث عن الصفات بمعزل عن الموصوفات، أو عن أفعال أو حالات منفصلة عن الفاعل أو الذات التي تكون في حالة معينة، قد لا يحصل بتاتا عند البدائيين، وهكذا فهو لن يتحدث عن الطيبة كونها فكرة برغم أنه قد يتحدث عن طيبة فلان من الناس، ولن يتحدث عن حالة النعيم بمعزل عن الشخص الذي يعيشها ولن يشير الى القدرة على الابصار دون الاشارة الى شخص يتمتع بها)[٢٧] وهكذا كان فعله الأهوج الذي جاء بعيدا عن الحكمة والتبصر والبحث عن أسباب ومسببات بقدر ما كان انقيادا نحو أفكار ظنها تؤمن له المنعة والنجاة فكانت فيها مصيبته ومأساته الأخيرة، وتقليداً أعمى لفكر يرجع في أسسه الى مراحل متسافلة من عمر البشرية.

ونحن هنا لا نستبعد التأثير اليهودي المباشر أو غير المباشر في أهل(الحضر) في إدخال تلك البدعة. فإذا كان مباشرا فقد يكون متعمدا يستهدف غرضا سيئا، ناجما عن حسد أو غيرة وقد يكون بريئا. وان عدم استبعادنا الدور اليهودي مرده أمران، الأول هو أن بعض اليهود كان ما يزال يسكن في (حدياب) المجاورة للحضر منذ الأسر الأشوري للأسباط العشرة، وان اليهود أثروا في الأسرة المالكة في (حدياب) فهودوها في القرن الميلادي الأول، فالتزمت تلك العائلة بولائها لليهود واسنادها لهم وان مملكة (حدياب) ظلت قائمة حتى القرن الرابع للميلاد[٢٨](بعد اندثار الحضر بقرنين)، والثاني أن اليهود معروفون بمزاولة السحر وفنون الشعوذة ومنها الطلاسم(وكانت تلك الممارسات من بين طقوسهم وقد أسسوا لها مدارس تختص بالعرافة وقراءة الغيب ومعرفة الطالع وباقي العلوم السحرية واسموا أساتذتها (آباء) و(سادة) واسموا تلامذتها(بني الأنبياء) وكانت أشهر تلك المدارس في أريحا والجلجال وبيت إيل)[٢٩] لذا فإن تسرب تلك البدعة التي تجعل المرأة دنسا مقرفا عن طريق اليهود الى (الحضر) التي تقدس المرأة وتعبد آلهة أنثوية وتستخدم إناثا في معابدها بوظائف دينية، أمر لا يستلزم حتى محاولة إثباته وتأكيده بعدما قدمنا ما يلزم من أدلة منطقية.

أما مصدر واساس نشوء وتنامي تلك الأفكار عند(اليهود)، فذاك يعزى إلى انهم ذوو عبادة ذكورية وانهم لا يستخدمون النساء في معابدهم اساسا حتى إن زوجة(عمران) شعرت بخيبة أمل عندما وضعت ما نذرته للرب محررا، وإذا به أنثى(رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى. آل عمران،٣٦) وهو ما لم يكن معهودا في خدمة الهيكل فكيف ستفي بنذرها إذن، ولو أنهم في بعض مراحل السقوط والتردي الديني والأخلاقي تونثوا فأقاموا طقوسا وثنية في معابدهم وقصور ملوكهم، وعبدوا العجول والأفاعي وقدسوا الأشجار ومارسوا الزنا المقدس(القديشين)[٣٠] كان ذلك في زمن أنبياء بين ظهرانيهم، فكيف وهم(على فترة من الرسل) يختلقون طقوسا ويؤسسون لديانة ضاعت أصولها وفقدت نصوصها، فلفقوها تلفيقا من مصادر وثنية امتازت بها شعوب غالبة

والمغلوب مجبول على تقليد الغالب. والانكى من ذلك أن تلك الشعوب لم تكن تستنجس المرأة الحائض كما بالغ (اليهود)، فلا بد من تتبع الأصل في تلك البدعة.

ان الأصل في ذلك هو المجتمعات البدائية التي يشكل التطهير عندها حقوقا خلاقة فهي (تخدم كمناسبات للتعبير الصريح)[123] لذا فإن دم الحيض عندهم قذر ويشكل احد أهم المحرمات شهرة، ففي المجتمعات البدائية (تلزم النساء اللواتي يحضن بعزل أنفسهن ويحظر عليهن لمس الأشياء ذات الاستعمال المشترك، وأحيانا أطعمتهن الخاصة التي قد يلوثنها)[124] وعندما نستحضر النص التوراتي الذي أوردناه في موضع سابق ونوازنه بما يقول (جيرار)، نجد ان اليهود عادوا في هذا الأمر إلى عصور ما قبل الوثنية، إلى عصور البدائية ليستعيروا منها بعض حقوقهم وأجزاء من نصوصهم (المقدسة)، فـ (جيرار) يستطرد واصفا حال البدائيين ونظرتهم إلى دم الحيض فيقول (كل إراقة دم تحدث عندهم خوفا، فلا ينبغي التعجب إذن مسبقا من أن دم الحيض الشهري يخيف، ومع ذلك هنا شيء آخر غير التطبيق البسيط للقاعدة العامة. بالتأكيد لم يكن لدى البشر مطلقا أدنى صعوبة لتمييز دم الحيض الشهري عن الدم المراق في حادث قتل أو حادث صدم وعليه فإن قذارة الدم الشهري في كثير من المجتمعات تبلغ حدا بعيدا، ولهذه القذارات علاقة واضحة بالجنس)[125] فالقضية إذن قضية خوف الإنسان البدائي من تدفق الدم: إنه مخيف... أليس في النص اليهودي المقدس الذي أوردناه والذي يقول: (فتعز لان بني إسرائيل عن نجاستهم لئلا يموتوا في نجاستهم بتنجيسهم مسكني الذي في وسطهم) ما يترجم ذلك الخوف البدائي إلى واقع ديني عند (اليهود)؟

ويستمر التوريط:

لا ينكر أحد الجهد اليهودي الحثيث لتهويد الإسلام، وأن هذا الجهد وإن فشل في مهمته الأساس بسبب وعي المسلمين الأوائل، إلا ان بعض جوانبه لاقت نجاحا من خلال إدخال بعض التفسيرات الإسرائيلية من قبل (كعب الأحبار) ورهطه من المندسين بين صفوف المسلمين عن سوء قصد ورداءة طوية.

فاليهود الذين توارثوا الخوف من الطمث ظلوا عاكفين على عقيدتهم البدائية يخدعون الناس بها ويورطونهم كما تورط في خرافاتهم (الضيزن) وكانوا (إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوهن ولم يشاربوهن ولم يجامعوهن في البيوت)[126] حتى حل النبي (صلعم) بين ظهرانيهم في (المدينة) فجاء قوم منهم يريدون أن يقحموا جهلهم وتخلفهم وبدائيتهم في الدين الجديد توريطا وحسدا من عند أنفسهم فبدأوا بذلك عندما سألوا النبي (صلعم) عن المحيض، فأنزل الله تعالى (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ..الأية البقرة ٢٢٢) فأمرهم رسول الله (صلعم) أن (يؤاكلوهن ويشاربوهن ويجامعوهن في البيوت وأن يصنعوا بهن كل شيء ما خلا الجماع)[127].

عودة إلى النضيرة:

لم نشأ أن نتوقف عند حد اجتياح (سابور) لمدينة (الحضر) إذ استكملنا المهمة، فلا بأس من إتمام الفائدة ومتابعة مصير الخائنة. فما أن قتل (سابور) سراة (الحضر) وعلى رأسهم ملكها (الضيزن) حتى أخذ (النضيرة) على وفق الاتفاق الذي بينهما وسار بها إلى (عين التمر) فعرس بها هناك. وبعد أن التمس النوم وجد أن ضجيعته تتململ على فراشها فقال لها ما يمنعك من النوم؟ فقالت: لم أنم على فراش خشن كفراشك قط، فقال لها: وهل نام الملوك على أنعم من فراشي؟ ففتش تحتها وإذا بورقة آس عالقة به، فقال لها: بم كان أبوك يغذوك؟ فقالت: بشهد الأبكار من النحل ولباب البر ومخ الثنيات فقال لها (سابور): أنت ما وفيت لأبيك مع حسن هذا الصنيع فكيف تفين لي؟ ثم أمر ببناء عال فبني وأصعدت إليه، وقال: ألم أقل لك إني سأرفعك فوق نسائي، قالت: بلى ثم أمر بفرسين جموحين فربطت ذوائبها في ذنبيهما ثم فرق بينهما فقطعاها فصارت مثلا تضرب به العرب ومن ذلك قول عدي بن زيد:

والحضرُ صُبّتْ عليه داهيةٌ
شديدةٌ أيّدَ مناكبها
ربيبةٌ لم تَوقَ والدها
لحبها إذ أضاع راقبها
فكان حظ العروس إذ جشر الـ
ـصبح دماء تجري سبانبها

الهوامش

(١) الصايغ، المطران سليمان (تاريخ الموصل) مطابع الكريم - جونيه لبنان ١٩٥٦ ج٢ ص٥٥.

(٢) علي جواد (مفصل تاريخ العرب قبل الإسلام) نشر بمساعدة جامعة بغداد، ط٢ ١٩٩٣. ج٢ ص٦١٧.

(٣) الصالحي، وائق إسماعيل، بحث بعنوان (المعتقدات الدينية في فترة الاحتلال الاخميني والسلوقي والفرثي) المنشور في موسوعة الموصل الحضارية، جامعة الموصل ١٩٩١، ج١ ص٣٢٥.

(٤) الحموي، ياقوت (معجم البلدان) دار صادر ودار بيروت - بيروت ١٩٧٩ ج٢، ص٢٦٨.

(٥) ابن هشام، عبد الله (سيرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم) تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد دار الفكر - بيروت بلا ج١ ص٢٦.

(٦) الاصفهاني، حمزة بن الحسن (تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء) دار مكتبة الحياة - بيروت بلا ص٤٥-٤٧.

(٧) الخيل العلافية نسبة إلى علاف الذي هو ربان بن حلوان بن الحاف بن قضاعة انظر: ياقوت (مرجع سابق) نفس الصفحة.

(٨) الاصفهاني (مصدر سابق) ص٩٨-٩٩.

(٩) ياقوت (مصدر سابق) ص٢٦٩.

(١٠) البستاني، بطرس (دائرة المعارف) دار المعرفة - بيروت ١٨٨٣ ج٧ ص٩٩ (مادة حضر)، ابن هشام (مرجع سابق) ص٧٧.

(١١) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم (الكامل في التاريخ) دار الفكر - بيروت ١٩٧٨ ج١ ص٢٢٥.

(١٢) الصايغ (مرجع سابق) ص٥٥.

(١٣) ياقوت (مصدر سابق) ص٢٦٨.

(١٤) البستاني (مرجع سابق) ص٩٩.

(١٥) علي (مرجع سابق) ص٦١٥.

(١٦) محمد عبد المنعم رشاد بحث بعنوان (المعتقدات الدينية في فترة الاحتلال الساساني) في (موسوعة الموصل الحضارية) مرجع سابق ص٣٣٠.

(١٧) ياقوت (مصدر سابق) نفس الصفحة.

(١٨) البستاني (مرجع سابق) ص٩٩، ١٠٠.

(١٩) ابن هشام (مصدر سابق) ص٧٧.

(٢٠) ساكز، هاري (قوة آشور) ترجمة عامر سليمان، المجمع العلمي - بغداد ١٩٩٩ ص٢٠٥.

(٢١) المرجع السابق - نفس المكان.

(٢٢) الصالحي، (مرجع السابق) ص٣٢٥-٣٢٦.

(٢٣) الدباغ، تقي (الفكر الديني القديم) دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ط١، ١٩٩٢ ص٥٣.

(٢٤) الصالحي (مرجع سابق) ص٣٢٨.

(٢٥) النسائي، احمد بن علي بن شعيب (سنن النسائي بشرح السيوطي) المكتبة التجارية الكبرى ط١، ١٩٣٠ ص١٦-١٥٠.

(٢٦) الدميري، الشيخ كمال الدين (حياة الحيوان الكبرى) دار الفكر - بيروت بلا ج١ ص٣.

(٢٧) الملوك الثاني ١٧: ١٥-٢١.

(٢٨) مونتاغيو، أشلي محرر (البدانية) ترجمة محمد عصفور سلسلة عالم المعرفة - الكويت ١٩٨٢ ص١٩٥.

(٢٩) سوسة، احمد (مفصل العرب واليهود في التاريخ) دار الرشيد للنشر - بغداد ط٥، ١٩٨٠ ص٨٢٨-٨٢٩.

(٣٠) عيسى، حسن عبيد (التآمر اليهودي على بلاد الرافدين حتى سقوط بابل) بيت الحكمة - بغداد ٢٠٠١ ص٢٦٠.

(٣١) المرجع السابق ص٢٦٨.

(٣٢) مونتاغيو (مرجع سابق) ص١٩٩.

(٣٣) جيرار، رينيه (العنف والمقدس) ترجمة جهاد هواش وعبد الهادي عباس، دار الحصاد للنشر والتوزيع - دمشق ط١، ١٩٩٢ ص٥١.

(٣٤) المرجع السابق ص٥٣.

(٣٥) النسائي (مصدر سابق) ص١٥٢.

(٣٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.